إلى جمهرة الدارسين
المعنيين بعلوم العربية

لقد شقي الكثير منا بالدرس النحوي بسبب عدم وضوح هذه المادة في الموروث القديم الذي ما فتئنا لا نجد السبيل إلى فهمه وتيسيره. وكأننا آمنا أن هذا الموروث شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكأني أقول: أما آن للدارسين أن يتساءلوا فيما بينهم: أيكون لنا في هذا العصر أن نظل على مادة قديمة سلخت من عمرها قروناً طويلة؟ أكان شيء من هذا لدى غير العرب من الأمم ممن شاركوا في بناء الحضارة المعاصرة؟ أتكون مادة النحو لدى الدارسين من الإنكليز والفرنسيين والألمان والروس وغيرهم في عصرنا هذا هي نفسها قبل مئة عام؟ لو أن الدارسين العرب في عصرنا أدركوا أن النحو لدى هؤلاء الأمم هو غيره اليوم عما كان عليه قبل عقود عدة من الزمن، وإن التغيير فيه قد عرض لمواده ومنهجه، أقول: لو أنهم أدركوا هذا لأقبلوا على ما كان لهم من الموروث القديم مصلحين ميسرين.

لم أرد في درسي هذا أن أعرض لشيء من الإصلاح أو التيسير، ولكني وجدت أن ما سأعرض له يدفعني إلى أن أمهد له بهذه الكلمات. إن عامة من تصدّى للتيسير والإصلاح لم يضرب بسهم صائب في هذا الباب. وكأنهم انصرفوا إلى الدرس التاريخي فبدا لهم أن يكتبوا في «الخلاف» الذي حصل بين النحاة في العصور المتقدمة مما حدا من جاء بعدهم إلى أن يصنفوا أولئك النحاة إلى بصريين وكوفيين، ولا نعدم أن نجد بينهم من نعتوا بـ «البغداديين».

وسأعرض إلى هذا «الخلاف» وحقيقته ومبلغ ما كان له من العلم في أصوله وفروعه ومنهجه.